ما موقف «شيعة المهدي» من «صحيح» البخاري؟:

كشف قتلة بن بركة قضية تهم المغاربة جميعا

نورالدين لشهب*

■ اعلم أن الشيعة هم الأصحاب، وشايعه بمعنى تحيز له ومال اليه، والشيعة بالمعنى هم من تشيعوا الى آل بيت النبوة من علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين، وأبناء الحسين وصولا الى الامام الثاني عشر «المهدي». ويعتقد شيعة هذا المذهب بأحقية الخلافة في علي وبنيه بعده، وأن الخلافة التي تمت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم غير شرعية اغتصبها الشيخان (أبوبكر وعمر) من علي وفاطمة وتسمى بـ«الخلافة المغتصبة» كما كتب الباحث المغربي الشيعي مذهبيا ادريس هاني/ الحسيني. كما يعتقدون في عودة الامام الثاني عشر «المهدي» الذي سيملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا.. زد على هذا الاعتقاد بعصمة الأئمة التي تعتبر مدار الخلاف الأبدي بين السنة والشيعة...

حديثي لا يتمحور في التشيع الى هذا الرأي أو ذاك من الفريقين معا (السنة والشيعة)، فالأمر له ذووه من كلا الطرفين، ويكفي أن تنقر في عالم الانترنيت نقرتين اثنتين لتلفي عشرات المواقع ومئات المقالات كلها تغرف من معجم السب والشتم صنوف التفسيق والتبديع والتكفير والتقتيل بشكل متبادل.. ان الشيعة الذين أقصدهم ليس بالمعنى المذهبي وانما بالمعنى السياسي للكلمة. والمهدي ليس الامام الثاني عشر الذي تنتظر عودته من الغيبة الكبرى فيملأ الأرض عدلا وقسطا، وانما المقصود به المهدي بنبركة: امام ثلة من السياسيين والمثقفين المغاربة على المستوى الايديولوجي.. والذي لا يطمع في عودته من الغيبة التي وقعت عام 1965 ما بين باريس والرباط، بل ظهور قبره وحسب قصد زيارته والترحم عليه كما يقضي العرف كحد أدنى، ومعاقبة الجناة الحقيقيين حتى لا تتكرر الجريمة.. أما صحيح البخاري فليس المقصود به الكتاب الذي يعتبره أهل السنة والجماعة اصح كتاب بعد القران الكريم، بالرغم من أن أبناء الطائفة الشيعية يعتبرونه يحوي أحاديث موضوعة في سلسلة سندها رواة من النواصب. وانما البخاري المقصود هو «أحمد البخاري» العميل السابق في الكاب1، واسناد الصحة لقوله ليس مجانا وانما في تقديري أن عمله في سلك المخابرات في شكله المغربي الحريص على خدمة دار المخزن ليس الا، مكنه من معرفة الكثير عن خيوط القضية وملابساتها مما يعني أن لكلامه قسطا «وافرا» من الصحة في عملية الاختطاف والقتل والتغييب التي تعرض لها «الامام» المهدي (بنبركة طبعا) في الوقت الذي يصور الاعلام الرسمي للمملكة الشريفة الجريمة المروعة عند حلول ذكراها وكأن المهدي طفل صغير خرج ليلا وتاه فضل الطريق وأكله الذئب.

البخاري يصرح في صحيحه/ مذكراته الجديدة (جريدة النهار المغربية ع 2005/10/27) قائلا: المهدي بنبركة تم تعذيبه واغتياله من طرف أوفقير والدليمي ليلة 30/29 تشرين الاول (أكتوبر) 1965 داخل فيلا بوتشيش بمساعدة التونزي والحسوني وعبد الحق العشعاشي ومسناوي وصاكا. جثة بن بركة بقيت في مكانها مدة 17 ساعة تقريبا قبل أن تتم تغطيتها ونقلها الى فيلا لوبيز يوم السبت 30 تشرين الاول (أكتوبر) 1965 في الثامنة ليلا. ولقد بقيت الجثة لمدة ساعتين في هذه الفيلا قبل أن يتم نقلها الى مطار باريس. نقل جثة بن بركة بين الفيلتين وبين الفيلا الأخيرة وأحد مطارات باريس ثم على متن سيارة فاخرة تابعة لسفارة التونزي ميلود والى جانبه بوبكر حسوني. كل عناصر الكاب 1 هؤلاء قضوا أياما كاملة وعشرات الساعات في كل فيلا بين 28 و31 تشرين الاول (اكتوبر) 1965. «هنا والآن» بتعبير عبد الرحمن منيف، نقف لنتساءل مع الحقوقي عبد العزيز النويضي أحد شيعة المهدي الأوفياء: هل يمكن أن يتواجد هؤلاء بهذا المستوى الرفيع بدون علم السلطات المغربية على أعلى المستوى؟ الجواب: لا. وماذا كان دور كل واحد من هؤلاء؟ ان الجواب أعطته عدة روايات ولكنها تفيد أساسا أن مصير المهدي بنبركة أصبح بين أيدي أشد خصومه ضراوة وعنفا وهم يمثلون المستوى الثاني في هرم السلطة الفعلية بعد رئيس الدولة آنذاك (جريدة الأيام 10/4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2006). وهل كان الجناة معروفين لدى المخابرات الفرنسية؟ يجيب البخاري في نفس السياق والمرجع: في سنة 1965 لم تكن السلطات القضائية والأمنية تعرف شيئا عن هويات عناصر الكاب 1 الذين أخذت بصماتهم نهاية تشرين الاول/ أكتوبر وبداية تشرين الثاني/ نوفمبر 1965. خلال مدة 36 سنة بقيت الهويات الحقيقية غير معروفة بفرنسا في الوقت الذي يسافر فيه هؤلاء غالبا الى فرنسا أربع الى خمس مرات في السنة. خلال هذه المدة لم يتم ازعاج أي واحد منهم من طرف الأمن الفرنسي. لأن لا أحد يعرفهم في فرنسا. لكن منذ اعترافاتي الأولى صيف 2001 تغيرت الوضعية لأن الهويات الحقيقية لكل هؤلاء تم نشرها في الصحافة الدولية والوطنية (جريدة النهار المغربية ترجمة ادريس عدار) هذا ما جاء في صحيح البخاري، فما موقف شيعة المهدي من هذا الكلام الواضح وضوح الشمس في كبد السماء، ان كانوا فعلا يتغيون الكشف عن الحقيقة، حقيقة الكشف عن جريمة خطف وقتل وتلف الجثة؟ ما موقف وزير العدل الذي يفترض فيه أنه من شيعة المهدي لأنه تخرج من «حوزته» السياسية والأيديولوجية بله كونه مواطنا مغربيا؟ نترك السيد الوزير يبحث عن تخريج «فقهي» في هذه النازلة كما حدث في مراكش مرتين: الأولى في قضية ضحايا ايزو لما اعتبرت الجريمة خارج مجال وزارة العدل، والمرة الثانية في قضية الرشا والفساد المالي بخصوص الانتخابات الأخيرة التي اعتبر ما قدمه المستشار البرلماني الاتحادي محمد بنمسعود من رشوة للناخبين وشراء الذمم هدايا، لأن المتورط فيها اتحادي يفترض فيه هو أيضا أن يكون من «شيعة المهدي».. لا عليك الشيعة الذين سنعرض آراءهم وموقفهم من صحيح البخاري هم من النخبة حقا وليسوا من «الغوغاء». أولهم المفكر محمد عابد الجابري والثاني الناقد الأدبي والبلاغي محمد العمري والثالث الكاتب الصحافي عبد اللطيف جبرو اضافة الى متن/ مقال من جريدة «الاتحاد الاشتراكي» الناطقة باسم «الحوزة» السياسية حتى لا نقول الأيديولوجية لأن الحزب فتح أبوابه للجميع دون حساب الرصيد الايديولوجي. وهذه عاهة يستوي فيها جميع الأحزاب المغربية حيث انصب اهتمامها كله في الانتخابات ونمط الاقتراع والسيطرة على الجهاز التنظيمي بدون فكر مؤطر ولا خلفية ايديولوجية، أي سياسة بلا فكر كما يرى الباحث توفيق بوعشرين (المساء 14ـ2006/10/15).

محمد عابد الجابري أفرد كتابين من حجم كتابات الجيب في سلسلة (مواقف) التي يصدرها شهريا في عددين متتاليين. العدد 6و7 للحديث عن المهدي بنبركة، في العدد 7 يتحدث الجابري عن حياة المهدي بنبركة النضالية والفكرية ويربط بينهما لاعطاء صورة لمفكر سياسي عجز المفكرون والصحافيون والباحثون الأكاديميون عن سبر أغوارها واكتناه أسرارها بشكل تكاملي، تتعالق فيه وتتآلف طفولة المهدي التي عاشت في جو من الفقر والفاقة، فكان الرجل أطول من قامته وأكبر من سنه، منذ سن 15 سنة من عمره وهو يعمل في بيع الخضر بباب الحد بالرباط، رباط الثقافة والتكوين وليس رباط المخزن. أما في العدد 7، بداية من الصفحة 101 يسرد لنا الجابري ظروف وملابسات اختطاف المهدي معرجا على شهادة البخاري بحيث يرى انه لا يضيف معلومات جديدة الى الملف الا في جزئيتين: الأولى كشفه عن الاسم الحقيقي للشخص الذي كان ينتحل اسم الشتوكي، والثانية روايته لتفاصيل عملية اغتيال الشهيد المهدي من قبل أوفقير في المكان الذي نقله اليه مختطفوه في باريس، واذا كنا ـ يقول الجابري ـ لا نستطيع نفي أو اثبات التفاصيل لدينا ما يؤكده من أن أحد الشرطيين المغاربة المكلفين بحراسة المهدي المختطف في الدار التي نقل اليها في باريس قد احتج على عمليات التعذيب التي كانت تمارس على الشهيد قائلا: «لقد أمرنا أن ننقله حيا الى المغرب» ما يهم هو الاتفاق الحاصل ما بين الجابري والبخاري من المسؤول الحقيقي عن الجريمة ولنترك التفاصيل في كلام كل واحد من الطرفين...

الموقف الثالث يمثله المفكر البلاغي د. محمد العمري، وهو في حقيقته حرب اعلامية دارت ما بين «شيعة» المهدي عبر منابر اعلامية شتى حكت لنا تفاصيلها جرائد: «القدس العربي» و«النشرة» و«الأحداث المغربية». لما عاد المناضل الفقيه البصري رحمه الله من منفاه بداية صيف 1995، أجرى معه محمد معروف وحسن نجمي حوارا مطولا جمع في كتاب يحمل عنوان (الفقيه كتاب العبرة والوفاء، منشورات محمد الزرقطوني 2002) تعرض فيه الفقيه لقضايا وطنية واقليمية ودولية كقضية فلسطين وموقفه من بعض قيادات منظمة التحرير، وعلى وجه التحديد ياسر عرفات والثورة الخمينية وموت محمد الخامس الملغز و..كما خص محاوريه ببعض القضايا الفكرية والسياسية التي طبعت حياة المهدي بنبركة، وكذا موقفه من الاستعمار الجديد المتمثل في تحالف البرجوازية الصاعدة ومصالح المخزن الرامية الى كبح بوادر التغيير الذي بشر به اليسار الناشئ على هامش الحركة الوطنية.. لا ننسى أن الفقيه رحمه الله كان ينظر اليه من مجموعة من الاتحاديين على أنه منافس «جيء به» لتصفية حسابات قديمة لصالح «أبطال بلا مجد» ضد مجموعة «مجد بلا أبطال» خصوصا لما نشرت صحيفتا «الصحيفة» و«لوجورنال» للفقيه البصري وثيقة عبارة عن رسالة تورط بعض قادة الأحزاب في محاولة الانقلاب الثانية التي قادها أوفقير، والتي فصل فيها أكثر محمد لومة في كتاب خاص.. ولقطع هذا الطريق على الرجل قام الصحافي عبد اللطيف جبرو فنشر سلسلة من المقالات يفند فيها ما ذهب اليه الفقيه بخصوص المهدي، وجمعت في كتاب حمل العنوان: «الحقيقة أولا مغرب الأمس القريب» والكتاب من أوله الى آخره سب وشتم من وراء حجاب يصور فيه صاحبه الفقيه البصري وكأنه جلمود حطه الصخر من عل.. مما دفع د. محمد العمري لأن يخصص المبحث الثاني من كتابه (دائرة الحوار ومزالق العنف، افريقيا الشرق، 2002) لكشف الاستهواء والمغالطات التي طبعت ردود جبرو، عبد اللطيف أقصد وليس عبد الله جبرو الصحافي النبيه، ومن يقرأ ما دونه محمد العمري يحس بـ«المؤانسة والاستمتاع» بأسلوب عربي رائع وأدوات بلاغية ـ وهو المفكر البلاغي ـ أسعفته مادته المحببة في كشف أسلوب «النباهة والاستحمار» ـ بتعبير المفكر الايراني علي شريعتي ـ التي يتلبس بها جبرو في كل مرة وحين، ولكن لم يحدد لنا بشكل واضح وجلي من المسؤول الحقيقي في ملف «الامام» المهدي..؟ لهذا لم أتمكن من معرفة موقف أستاذنا العمري مما أدلى به البخاري، في الوقت نفسه نجد نديده جبرو قد ألف كتابا خاصا في نقاش البخاري حول شهادته تحت عنوان (نقاش مع البخاري حول شهادته عن سنوات الرصاص، مطبعة فضالة، 2005). ولما نتصفحه باحثين عن موقفه في هذا النقاش فيما قاله البخاري بخصوص قضية المهدي بنبركة، نجد جبرو لم يخصص سوى خمس وريقات للشهيد للرد على البخاري، مع ملاحظة أن الاختلاف لم ينصب سوى على بعض التفاصيل البسيطة كالاشارة الى أن المهدي بنبركة كان مهددا في حياته بالمغرب لما تعرض لمحاولة القتل عن طريق سيارة بيجو 405، وأنه لم يخرج الى فرنسا بطريقة سرية كما ادعى البخاري بل خرج عبر طائرة من مطار الرباط/سلا وهو يلقي النظرة الأخيرة من نوافذ الطائرة على وطنه..و.. و.. الى غيره من التفاصيل الصغيرة التي لم ترق الى مستوى وقامة وحجم «لينين العرب» كما كان يسميه المؤرخ الفرنسي جون لا كوتيروملف كبير دوخ الكثير من المتابعين والمسؤولين. وليس عن طرود ملغومة أو رسائل من «أصوليين» مفترضين يودون من فرط غيرتهم وحقدهم من الانتقال الديمقراطي الذي «ينعم» فيه المغاربة أن يغتالوا مهندسيه وصانعيه. عفوا المهدي ليس هو الدغرني ولا اليازغي ولا سعيد لكحل ولا... المهدي هو السياسي والمفكر والمناضل صاحب مشروع مجتمعي وطني وقومي وعالمي شئنا أم أبينا. لهذه الأسباب تمت تصفيته والتخلص من «شغبه» والسؤال الذي يهم المغاربة جميعا هو من قتل المهدي؟ لكن جبرو بدل أن يجيبنا بالعربي الفصيح مستفيدا مما قيل عن سنوات الجمر والرصاص نجده يحتكر الحقيقة لنفسه مكذبا الآخرين في دعاواهم ومخطئا النتائج التي يتوصلون اليها ولو كان باحثا رصينا أجنبيا من طينة «جون واتربوري»، مما يعطي الانطباع أن ذاكرة السيد جبرو توقفت في الستينات عند حدثين فقط محاكمة 1963 واغتيال المهدي 1965، آنذاك كان المخزن هو الذي يحكم بالحديد والنار دون «التورط» في تحميله المسؤولية المباشرة في قضية الاغتيال كما جاء في «صحيح» البخاري.

أما الموقف الرابع فيتمثل في مقال نشرته جريدة «الاتحاد الاشتراكي» (2005/12/01) لصاحبه الموساوي العجلاوي عن «الحلقة الاسرائيلية في عملية اختطاف واغتيال بنبركة» والمقال يتفق مع ما أورده البخاري في المتورطين الحقيقيين في القضية، غير أنه يضيف اسما جديدا لم يذكره «الصحيح» وهو اسم يهودي شارك في تصفية المهدي، يقول المقال: في محاكمة القنيطرة تم الكشف عن لائحة أرسلها محمد بنونة الى دهكون تتضمن أسماء لعناصر الكاب 1، ومن ضمنها يهودي صاحب مرقص بعين الذياب، شارك في عملية اختطاف بن بركة، فهل يتعلق الأمر بأرثير كوهين، وداخل الحلقة الاسرائيلية دائما ذكر في التحقيق اسم تورجمان، الذي كان تاجرا مغربيا كبيرا وقريبا جدا من أوفقير، وله دور في تهجير اليهود المغاربة نحو اسرائيل التي كان يزورها باستمرار، وصل تورجمان الى باريس يوم 13 تشرين الاول (أكتوبر) 1965، ونزل بفندق كران أوطيل دوري، ومنه تم الاتصال بسوشون اما من طرف تورجمان نفسه أو بواسطة لوبيز. يوم 25 تشرين الاول (اكتوبر)، تناول تورجمان عشاءه بفندق أديلفي صحبة لوبيز وبوشيش وأربعة مغاربة ممن تسترت مصالح الاستخبارات على أسمائهم بدعوى مصلحة أمن الدولة. في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة من 29 تشرين الاول (أكتوبر) 1965، هاتف تورجمان العميل لوبيز بشكل مستمر، واتصل به أيضا 30 و31 تشرين الاول (أكتوبر) و1و2 تشرين الثاني (نوفمبر). ان صاحب المقال يتفق في ما ذهب اليه البخاري في شهاداته مع اضافة معلومة جديدة حين يقول بالحرف الواحد: «لا شك أن البخاري ومن روى على لسانه حقيقة اغتيال بن بركة لم يطلعوا على محاضر المحاكمتين الأولى والثانية، فيما يخص مشاركة المصالح السرية الاسرائيلية في التخطيط لاختطاف واغتيال المهدي بن بركة». طيب هذه معلومة/ حديث لم يتطرق اليه البخاري، لكن لماذا يعانق «شيعة» المهدي قتلته بالأحضان ويستقبلونهم ببلده الذي مات من أجله، وأتذكر أنه لما كتب رشيد نيني في عموده الذي يتأبطه أينما حل وارتحل في «أرض الله الواسعة» الصحافية طبعا، بجريدة «الصحيفة» عن علاقة الاتحاد الاشتراكي بالكيان الصهيوني آلم ذلك عبد اللطيف جبرو.. فطفق يرغي ويزبد شاهرا سيف بن بركة مع كل من اختلف مع «شيعته» من الاتحاد الاشتراكي.. شيء من الخجل نرجوكم. دعوا المهدي الى جانب ربه واحترموا سكونه لأنه لو قام بينكم حقا لسوف تخذلونه حقا كما أنتم فاعلون الآن رمزيا حين كفرتم بالمبادئ التي ضحى من أجلها.. ان قضية المهدي بن بركة مسألة تهم جميع المغاربة بكل أطيافهم حتى لا أقول طوائفهم، لأننا ازاء هذه القضية كلنا واحد، كلنا شيعة ليس سياسيا ولا حتى أيديولوجيا، بل وطنيا وانسانيا، وطنيا أولا لأن المهدي بن بركة مواطن مغربي ومفكر سياسي في تراثنا السياسي والفكري القريب ليس من باب الفضول المعرفي وحسب كما يروج البعض بل من باب قراءة الصفحة جيدا قبل قلبها قصد استخلاص الدروس والعبر لنعرف هل أن سنوات القمع والرصاص قد ولت الى غير رجعة أم أن الماضي لا يزال يستمر في الحاضر؟ وكم أعجبني تصريح فتح الله أرسلان في حواره مع قناة «المنار» اللبنانية الشيعية حين أعلن «تشيعه» من هناك عام 2001، ليس للمذهب بل للوقوف الى جانب الكشف عن حقيقة الاغتيال حين أكد بأن مسألة المهدي المناضل المغربي قضية تهم جميع المواطنين المغاربة لأنه ينتمي الى التراث النضالي للشعب المغربي، نفس الموقف ذهب اليه رفيقه عمر أحرشان الذي يعتبر قضية المهدي بن بركة درسا من الماضي ينبغي استثماره وأخذ العبر من أجل المستقبل. ذكرى اختطاف المهدي بنبركة يقول أحرشان (جريدة «الأيام» 3ـ2006/11/10) فرصة للاعتبار بما جرى واسترجاع شريط ذلك، حيث الدولة تهيئ الأجواء المناسبة لحملتها، فتصنع جوا سياسيا مكهربا لا حديث فيه الا عن المؤامرة على البلاد وزعزعة الاستقرار مستعينة في ذلك بأقلام وصحف مأجورة وأصحاب ذمم مأجورة منحطة باعوا دينهم ودنياهم وذممهم بعرض من الدنيا قليل، وتعمل على تحييد الخصوم واشاعة جو الفرقة وسطهم، ثم بعد ذلك تنقض على الواحد تلو الآخر، وصدق ذلك الثور الذي قال يوما: «أكلت يوم أكل الثور الأبيض». قد يقول قائل معترضا: ان هؤلاء الناس يتقنون هواية احراج المخزن. وليكن.

أما الجانب الانساني في القضية فيتعلق بـ«آل بيت المهدي» زوجته التي رملت وأبناءه الذين يتموا، البشير واخوانه الذين يريدون أن يكون لأبيهم قبر يترحمون عليه، ويزورونه كلما تذكروه، وليتصور كل واحد منا حجم المأساة التي حلت بعائلة مغربية كما نرى في الاعلام المغربي عن عائلتي المغربيين المختطفين في العراق، فان كان الاختطاف واحدا فان الجريمة واحدة، وان كان المغاربة يعرفون المجرم في حق المختطفين في العراق، فانهم الى حد الساعة يجهلون المتورط الحقيقي في تغييب المهدي بن بركة، ربما لم يطلعوا بعد على «صحيح» البخاري. وأقصد بالمغاربة عموم الشعب المغربي.

يبقى في الأخير أن أشير الى أن للكاتب المغربي «الشيعي مذهبيا» ادريس الحسيني/ هاني كتاب عنوانه «لقد شيعني الحسين» والكتاب من عنوانه بيان ثقافي عقدي عن سبب ودافع السيد هاني للتشيع للأئمة الاثني عشر مذهبيا. وان كان السيد هاني يعرف مصير جثة الحسين عليه السلام، جسده بالعراق ورأسه بمصر، فاننا في المغرب الأقسى (من القسوة) نجهل مصير جثة المهدي بكل أطرافها. لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. وان كان الحسين يلقى الاحترام والتقدير، بل والتعظيم من لدن جميع الطوائف الاسلامية. فان المهدي لا زال من ينزع عنه قيم الوطنية عن طريق التخوين والتكفير من قبل مثقفي المقاهي ووعاظ السلاطين كالزمزمي الذي حصر همه في تكفير المعارضة المغربية لنظام المخزن الممثلة في الاتحاد سابقا والعدل والاحسان حاضرا. يحق لي انسانيا ووطنيا أن أقول «لقد شيعني المهدي» كمواطن مغربي وانسان أخشى ما أخشاه أن تتكرر النازلة بطبعة جديدة ومنقحة مخزنيا كما حدث مع الدكتور محمد بنيت رحمه الله بعد أحداث 16 ايار (مايو) الأليمة وغيره من الضحايا. ان لم توضع القوانين العاصمة من اعادة ما تكرر ومأسستها.. طاب «المساء».

تصبحون على وطن.

* كاتب من المغرب

تداعيات عراقية من القاهرة

د. عبد الحميد الكاتب*

■ مع اقتراب العطلة الصيفية وانتهاء العام الدراسي يبدأ الاساتذة الوافدون في بعض دولنا العربية بالتسابق لتنظيم سفرهم الى بلدانهم، فالمصري او السوري او السوداني وغيرهم متلهفون لقضاء اجازة العطلة الصيفية بين احضان اهلهم في بلدانهم، ومما يحرصون عليه اننا نراهم يرتبون تاريخ الذهاب والعودة لدرجة استنفاد جميع ايام الاجازة والتأخر يوما واحدا يكون عندهم مشكلة.

هو حق مشروع، لكن لماذا ترانا نحن العراقيين نمتعض منهم؟ نعم انه الحسد، فالوحيدون هم ابناء الجالية العراقية لم يعد عندهم ذلك الاندفاع لزيارة البلد منذ (تحريره) على يد قوات الاحتلال (الامريكية الديمقراطية)، فاذا كانت العطلة متنفسا للجميع فان اقترابها يعني مشكلة للعراقي المغترب، المشكلة هي انك تفكر اين ستقضيها وكيف تخطط لذلك، الخيارات محدودة وجميعها مقلقة، العودة للعراق امر صعب ومجازفة كبيرة، فالطريق من الحدود الى بغداد – او اي مدينة اخرى – غير آمن وتنتظرك فيه عصابات السلب، والحي الذي تعيش فيه ربما لن يحميك لا من قوات الاحتلال (الصديقة) ولا الميليشيات العميلة ولا عصابات الخطف التي تترقب العائدين بدولارات الاغتراب.

يبدأ الهاجس في تفكير العراقي المغترب بالسؤال (اين نذهب هذه السنة)؟ هل نسافر الى سورية ام الاردن كما فعلنا في السنوات السابقة من اجل رؤية الاهل هناك، الاردن بدأ يضيق الخناق على العراقيين، وسورية اشتعلت غلاء بعد هجرة الملايين اليها، ففضلا عن العنف الطائفي في العراق جاءت حرب لبنان، لن نستطيع البقاء في بلدنا هذا الذي نعمل فيه فالحياة تصبح صعبة بعد رحيل الجميع فضلا عن قسوة المناخ فيه.

ونحو هؤلاء كان تفكيري لكنني هديت الى فكرة جديدة هذا العام، لماذا لا نقضي عطلتنا في القاهرة، بلد جميل والحياة فيه مفعمة والمعيشة فيه ليس فيها غلاء كما نسمع، توكلنا على الله ورتبنا امورنا على ذلك، ونزلنا القاهرة فرايناها كما كانت توصف (مصر ام الدنيا)، يتداخل الليل والنهار وحركة الناس مستمرة لا تنقطع، جمال المتنزهات ووفرة الخدمات وتعدد خيارات الترفيه لا تسمح للسائح بالملل.

تمتعت عائلتي على غير عادتهم وشاهدوا ما لم يشاهدوه من قبل، الا انني كنت في كل يوم اذرف الدموع واعتصر الما، باختصار انها تذكرني ببلدي بغداد، اتمشى على كورنيش النيل فأتاوه على كورنيش (ابو نواس) او كورنيش الاعظمية، اركب الزورق فتلامس وجهي قطرات من مياه النيل فترجع بي الذكريات الى دجلة ونحن نعبر في زوارقه ولا سيما من (الشواكة) في الكرخ الى (شارع النهر) في جانب الرصافة.

كانت للاطفال متعة كبيرة وهم يتجولون في (حديقة الحيوان) لكنني كنت اسير وانا أتأوه على ذكريات (حديقة الزوراء)، نعم لم تكن حديقة الحيوان عندنا بهذا التنظيم لكن يكفي انها كانت في بلدي، وكانت المساحات الخضراء تحتضن سفراتنا العائلية او الشبابية، واتساءل هل بقي هناك شيء اسمه (الزوراء) ام اصبح كذلك قاعدة للاحتلال او وكرا للميليشيات، ام باتت خرابا كحال كل جميل في بلدي!

كثرة الجسور على نهر النيل ذكرتني بكل جسر فوق دجلة في بغداد، وهل يمكنني نسيان اي جسر وكنت اتسابق مع اقراني بتعدادها، ومما شاهدته من الجسور جسر حديدي ذكرني بجسر (الصرافية)، الجسر الذي كنت اعبره بشكل شبه يومي طيلة اربع سنوات ايام الدراسة الجامعية الاولية، (جسر الحديد انقطع من دوس رجليه) كما ورد في الغناء العراقي القديم، والذي يربط بين (العطيفية والكسرة)، انه من بقايا الاحتلال البريطاني مطلع القرن الماضي، لم يشيده المستعمر كاحد حملات (اعمار العراق) وانما شيده لانه كان يستخدمه لحركة القطارات التي تنقل له البضائع والمؤن، وهل يوجد مغفل يعتقد بان المحتل يريد له الخير، وهل يرتجى من الذئب ان يوفر للغنم علفا او يحقق لهم امنا.

المتنزهات في القاهرة عديدة وتتميز بالمساحات الخضراء والارصفة والزهور والاضاءة، كل ذلك كان سببا لفرح اطفالي وهم يمرحون في (المراجيح) ويأكلون سندويشات الطعمية (الفلافل)، الا انني على خلافهم كنت استرجع ذكريات رحلاتنا في (ساحة الاحتفالات) او (الجزيرة السياحية) او (جزيرة الاعراس)، تلك الرحلات التي كانت ترافقنا فيها (الدولمة) كاشهر اكلاتنا اللذيذة.

شاهدنا المتحف الوطني الذي يدلل على التاريخ العريق والحضارة العظيمة، فبكيت على متحفنا الوطني في (علاوي الحلة) الذي زينه الاحتلال في اول يوم دخل بغداد بقذيفة ثقبت واجهته، وكم كنت اتمنى بقاء ذلك الثقب ليكون تاريخا يضاف الى تاريخ العراق العريق، المتحف الذي نهبه جنود الاحتلال والعصابات التي جاءت معه، لست (وثنيا) ابحث عن التماثيل والاصنام لكنني وطني افتقد ما يشير الى تاريخ بلدي التليد، وزرنا الاهرام فتساءلت عن بابل هل دفنت من جديد تحت التراب، وكيف حال (الزقورة) ومدينة الحضر وغيرها.

وكان للناس من اهل مصر دور في تحريك ذكرياتي، فغالبا ما يقول لي احدهم – حين يعرف باني عراقي – انا كنت اعمل في العراق لسنوات عديدة، ويذكر الفضل للعراق وان اجمل سنين حياته قضاها هناك، ويخبرني انه لم ير خيرا قط مثل ما رآه في العراق ولا شاهد مثل كرم اهل العراق، نعم لقد احتضن العراق في زمن ما ملايين الاخوة المصريين، كان لهم الفضل في العمل في كل مرافق الحياة حين كان اغلب الشباب العراقي في جبهة القتال، لقد كان ذلك ايام حرب العراق ضد الهجمة الايرانية التي كانت تستهدف (تصدير الثورة الايرانية)، ايامها انشغل العراق بالدفاع عن الامة، وكان لملايين المصريين فرصة عمل رائعة كسبوا من خلالها مليارات الدولارات التي انتفعت بها ملايين العوائل المصرية فضلا عن استفادة الدولة المصرية.

متى ما خرجت في ليالي القاهرة ترى الناس في هرج ومرج، انه الامان حيث لا يخشى الناس شيئا، انها النعمة التي نفتقدها اليوم في العراق اكثر من اي شيء آخر، اولم يكن الناس في ليالي بغداد يخرجون ويسهرون دون خوف، الم يكن الامان متوفرا للجميع رغم قسوة (ودكتاتورية) الحكومة، اتذكر حين كان الناس تخرج للتزاور او التنزه وتعود قبيل الفجر، لم تكن تتهددها كما هو اليوم سطوة الميليشيات ولا مداهمة الاحتلال.

اينما توجهت في القاهرة تذكرت بغداد وما كان فيها، نشتري (الشاورما) فاتذكر (قاسم ابو الكص) في الاعظمية، نشتري الفواكه فاذكر اسواق بغداد التي كانت تلونها انواع كثيرة من (العنب والتين والمشمش والنجاص ووو)، نريد شراء الحلويات فنتذكر (نعوش والخاصكي والشكرجي) وغيرهم، ادخل سوق (العتبة) فاذكر اسواق الكاظمية وزحمتها (باب الدروازة) وصياح الباعة على بضائعهم.

لقد كانت عطلة من اجمل العطل الصيفية لعائلتي، لكنها كانت اشد العطل الما بالنسبة لي، لقد كنت اذرف الدموع في كل يوم على بغداد وذكريات جميلة مضت فيها، لقد كانت القاهرة بكل ما فيها من جمال وهناء سببا لتأجيج الآلام في صدري، ومن هناك كنت ادعو اللهم احفظ العراق واهله، اللهم حرر العراق من الاحتلال وخلصه من الميليشيات المجرمة، اللهم اعد لنا تلك الايام الهانئة الآمنة كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا.

* كاتب من العراق

في ضرورة مانيفستو اسلامي اوروبي

نحو تشريع التحالفات مع اليساريين والمثليين ومناهضي العنصرية

محمد مشارقة*

■ عدد من الشواهد والمؤشرات تؤكد على ان تغييرا ملموسا قد بدأ في السريان داخل القارة الاوروبية تحت يافطة مكافحة الارهاب، ولا ارهاب في القاموس الجديد سوى الارهاب الاسلامي، فالموضوع لم يعد محصورا في الجدل الثقافي او الاكاديمي وانما دخل حيز التنفيذ القانوني ليلامس حاضر ومستقبل الجاليات العربية والمسلمة على الارض الاوروبية، فقد بات واضحا التشدد في اجراءات الهجرة وتعقيد شؤون التجنس والزواج من اوروبيات، هذا بالاضافة الى حملة التضييقات الامنية، فالقوانين الاستثنائية باتت سيفا مسلطا على المسلمين بالذات، بما في ذلك ما يبيح للسلطات الأمنية أن تراقب من تعتبرهم مشتبها بهم دون الرجوع إلى ترخيص قضائي، ومداهمة منازلهم والمساجد والمراكز الإسلامية، دون اعتماد الشروط التقليدية في دول تؤكد سيادة القانون فيها، وتؤكد إعطاء الأولوية للحريات الفردية.

المسألة لها جذورها التاريخية، لكنها سياسية بالدرجة الاولى، ما يستلزم خوضها التزود بكل ادوات السياسة، من برامج وآليات مهنية وحديثة للتأثير والفعل في المستويات المختلفة، لكن الاساس هو مروحة من التحالفات السياسية والاجتماعية التي تقوم على اساس التوافق حول الحريات الانسانية، وحق الاختلاف والتنوع الثقافي، ومواجهة التيارات العنصرية والفاشية الجديدة.

ان هذا التوجه من شأنه ان يضع الصراع ضد العنصرية والتطرف اليميني الذي يهدد المسلمين في اوروبا، في ذات الطريق الذي يضم اليساريين بكل الوانهم والليبراليين والحنسويين، «مجموعات الجندر»، والمثليين، والفوضويين، ومجموعات معروفة من المتدينين المسيحيين واليهود الانسانويين، هؤلاء الذين وقفوا صراحة وبصوت عال ضد الانتهاكات الاخيرة بحق المسلمين سواء في تجاوزات الاجهزة الامنية على الاشخاص والبيوت او في قضايا النقاب والحجاب التي فتحها وزير الخارجية الاسبق، وباتت سلاحا بيد المتطرفين اليمينيين.

برأينا ليس امام المسلمين في هذه البلاد سوى الوقوف في خندق واضح، خندق الديمقراطيين والليبراليين الذين يدافعون عن قيم التعددية والاختلاف، قيم التسامح والتواصل الثقافي والانساني، خندق من يدافعون عن حقوق الافراد بصرف النظر عن الدين او الجنس او اللون، خندق من يدافعون عن العدالة الاجتماعية وحقوق المعاقين والفقراء وكبار السن. بكلمات اخرى، اذا ما اراد المسلمون كسب هذه القضية الوجودية، فليس هناك من طريق سوى الانفتاح على الاخر وبلورة هذه الافكار في «مانيفستو اسلامي اوروبي» بصرف النظر عن مواقف وردود افعال تيارات المغالاة والتشدد الاسلامي، فمن غير المسموح لاقلية ان تجر ملايين المسلمين في القارة الاوروبية الى الهاوية والى تهديد مصالحهم واستقرارهم ومستقبل ابنائهم، بهذا البيان الواضح نقدمه لكسب عقول وافئدة جاليتنا اولا، ثم نخرج به الى المجتمع والى القوى السياسية والتيارات الفكرية من أجل بناء تحالف السلم والديمقراطية والتعددية الثقافية، ومن اجل الدفاع عن المكتسبات الليبرالية المهددة في هذه البلاد.

في بريطانيا وغيرها من البلدان الاوروبية يمكن الاعتماد على مواقف قوى وتيارات سياسية وانسانية منصفة، يحركها الخوف على الحريات والحقوق المدنية ومعارضة تحويل الاختلاف الى «صراع حضاري».

المسلمون في هذه البلاد يحتاجون إلى حليف في الصراع على الحقوق والحريات الأساسية، يقف معهم ويساعدهم في الاختلاف مع مجتمع الغالبية.

فقط بالدعوة الانسانية والاخلاقية النبيلة للاسلام يمكن كسب معركة الوجود في اوروبا، فقط بالاندماج في الحركة السياسية والاجتماعية والثقافية المتمسكة بقيم العدالة والمساواة وحق الاختلاف ندافع عن مستقبل ابنائنا في اوروبا.

* رئيس تحرير صحيفة «العربية لندن»

اعتراف عربي صريح بحصار الشعب الفلسطيني

د. عصام شاور*

■ أول أمس كان الفيتو صفعة أمريكية جديدة لكل عربي ولكل مسلم. بدم بارد تذبح أمريكا قرارا كان من المفترض أن يدين الهمجية الصهيونية التي أراقت دماء أطفال ونساء بيت حانون، لم تكن الصفعة الأولى ولن تكون الأخيرة.

دور سلاح الفيتو الأمريكي في مجلس الأمن يأتي مكملا لسلاحهم العسكري الذي تزود به الكيان الغاصب ولا يقل خطورة عنه، فبالاباتشي وبالمدفعية الأمريكية يقصف اليهود مدننا وقرانا ومخيماتنا، وبها يسفكون دماءنا ويزهقون أرواحنا ثم يأتي الفيتو الأمريكي ليحميهم. وممن سيستحي الأ